بيت الاستراثة لطرفة بن العبد في التراث العربي دراسة نقدية تحليلية

The poetic verse (Wait) by Tarfa bin Al-Abd, a critical rhetorical study

أ. م. د. خولة حسن يونس
أستاذ مساعد في النقد الأدبي القديم
كلية الآداب / الجامعة المستنصرية
Email:dr.hassany@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص :

لفت انتباهي كثرة إطلاق الأحكام النقدية قديما على بيت طرفة بن العبد الذي سميته ببيت الاستراثة وفقا لمعناه (طلب التريث) ، فحاولت في هذا البحث استقصاء تلك الأحكام وعرضها وتحليلها ، والخروج بنتائج علمية تخص البيت البحث القائم على مقدمة وتمهيد يتناول تسمية البيت ونظرة النقاد العامة إليه ، ثم سرد الأحكام النقدية التي أطلقت على البيت ومناقشتها في مواضعها مشفوعا بخاتمة تبين أهم النتائج ، والمصادر التي اعتمد عليها البحث ، راجية التوفيق في عرض المادة العلمية وفي الاستقصاء والتحليل ، ومن الله التوفيق .

الكلمات المفتاحية : الاستراثة ، طرفة ، التراث ، نقد

My attention was drawn to the abundance of critical judgments in the past regarding the poetic verse of Tarfat ibn al-Abd, which I called the verse of elegance. In this research, I tried to investigate, present, and analyze those judgments, and come up with scientific

results related to the verse. The research is based on an introduction and preface that deals with the naming of the verse and the critics' general view of it, and then lists the critical judgments. Which was launched at home and discussed in its appropriate places, accompanied by a conclusion showing the most important results and the sources on which the research relied, hoping for success in presenting the scientific material and in investigation and analysis, and from God, success.

Keywords: inheritance, joke, heritage, criticism

المقدمة :

لكل منجز إبداعي حظه من الاهتمام والتقدير ، والشعر العربي جنس من الأجناس الإبداعية التي حظيت باهتمام النقاد والمتذوقين ، لما يحمل من جماليات السبك وعمق المعنى ودقة التصوير ، وقد ينال بيتا شعريا واحدا من الحظوة والتقدير ما لا تناله دواوين; كبيرة ومجموعات شعرية كثيرة ، فيثبت البيت وجوده ، ويحمل المتلقي على ترديده في كل مناسبة ، و الاستشهاد به في كل موقف ، حتى يطبق الآفاق ويسير مسرى الأمثال.

وقد لفت انتباهي كثرة إطلاق الأحكام النقدية قديما على بيت طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود .

سواء من النقاد أنفسهم ، أو من الشعراء في عصره وفيما بعده من عصور ، أو حتى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يتحرج من إنشاء الشعر ، أو التمثيل به ، لأنه مما لا ينبغي له ، والذي كان معجبا بهذا البيت أشد الإعجاب لما يحمل من صدق في الخبر ، ومطابقة للواقع حتى استشهد به كلما تطابق واقع الحال في وقته مع معنى البيت ، أو استراث خبرا ينتظره هو ومن معه من الصحابة ، فيحثهم على التريث في طلبه ، وانتظار ما ستأتي به الأيام والساعات من أخبار لا يتسع له البحث عنها أو استقصائها ، فالأيام كفيلة بأن تسوقها إليه سوقا .

من هنا جاءت فكرة البحث القائم على مقدمة وتمهيد يتناول تسمية البيت ونظرة النقاد العامة إليه ، ثم سرد الأحكام النقدية التي أطلقت على البيت ومناقشتها في مواضعها مشفوعا بخاتمة تبين أهم النتائج ، والمصادر التي اعتمدها البحث ، راجية التوفيق في عرض المادة العلمية وفي الاستقصاء والتحليل ، ومن الله التوفيق .

التمهيد : تسمية البيت ونظرة النقاد العامة إليه :

راق لي تسمية البيت ببيت الاستراثة من الريث ، بمعنى الاستبطاء، متكئة على الحديث الوارد في موسوعات الحديث وكتب التفسير ، فقد روي أنه (إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة) (الترمذي، 1353هـ، صفحة 142) ، وقيل : (إذا استراب الخبر) (العيني، ت 855هـ، صفحة 20) . وأنشد هذا البيت للنبي صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، فقال: هذا من كلام النبوّة! (الأندلسي ا.، صفحة 617).

ولا يسعنا في هذا البحث التعريف بطرفة بن العبد فهو أشهر من نار على علم ، مكتفين بما تناوله الدارسون لشعراء الجاهلية بالدرس والذين ترجموا له ترجمة وافية قديما وحديثا (القرشي، ت 170هـ، صفحة 89 - 96) ، وما يهمنا من تلك التراجم والدراسات آراء النقاد وشعراء عصره فيه ، إذ اختلف الشعراء أنفسهم في تقييم بعضهم ، وهم من هم في مسك زمام الشعر ، ومعرفة صنعته ، فهذا ابن مقبل (ت 103 هـ) قال : (طرفة أشعر الناس) (القرشي، ت 170هـ، صفحة 25) ، وهذا لبيد سئل عن أشعر الناس فقال : (الملك الضليل ، والشاب القتيل ، ثم الشيخ أبو عقيل ، يعني امرأ القيس، وطرفة ، ونفسه) (الأندلسي ا.، صفحة 617)

كما اختلف النقاد القدامى في طرفة ، فذهب أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) إلى أن : (أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس والنابغة وطرفة ومهلهل) (الأزدي، ت 463 هـ - 1981 م.) (الأزدي، ت 463 هـ - 1981 م.، صفحة 29) ، وقال أيضا : (طرفة أشعرهم واحدة) (الأندلسي ا.، صفحة 617) ، يعني قصيدته : لخولة أطلال ببرقة ثمهد ، وفيها يقول :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وأبو عبيدة (ت 210 هـ) جعله ثالثا في الطبقة الثانية مع الأعشى ولبيد ، بعد امرئ القيس، وزهير والنابغة من الطبقة الأولى (القرشي، ت 170هـ، صفحة 25) ، وابن سلام الجمحي (ت 231 هـ) في طبقات

فحول الشعراء جعله في الطبقة الرابعة من طبقات شعراء الجاهلية ، وجعله ثانيا مع عبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد ، معلقا عليهم بقوله : (وهم أَرْبَعَة رَهْط فحول شعراء موضعهم مَعَ الْأَوَائِل وَإِنَّمَا أخل بهم قلَّة شعرهم بأيدي الروَاة) (الله، ت 232هـ، صفحة 137) ، ومبينا أنه أشعر الناس واحدة (الله، ت 232هـ، صفحة 137) .

و قال فيه ابن قتيبة (ت 276 هـ) : (هو أجودهم طويلة ... وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل) (الدينوري، الشعر والشعراء، 1423 هـ ، صفحة 32) ، وأبو زيد القرشي (من علماء القرن الثالث) قال فيه : (هو أشعرهم إذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم في طول أعمارهم ، وإنما بلغ عمره نيفاً وعشرين سنة، وقيل: لا بل عشرين سنة ، فخب وركض معهم) (القرشي، ت 170هـ، صفحة 89) .

ومما لا يخفى على ذي لب أن الأحكام النقدية السابقة ولا سيما التي أطلقها الشعراء على بعضهم لم تنبع من رؤية نقدية واضحة ، أو معيار نقدي محدد ، إذ كانت انطباعية ذوقية ، ولم تكن هذه الأحكام مما يسلم بها ، فقد قيل للحطيئة : أي الناس أشعر ؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية ، فقال : هذا إذا طمع) (الدينوري، الشعر والشعراء، 1423 هـ ، صفحة 79) ، وسئل غيره فأجاب : (النابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب) (شيخو، 1913 ، صفحة 142) .

وإلى هذا أشار ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) في العمدة معلقا على إجابة الشعراء على من هو أشعر الناس ؟ فالفرزدق قال: امرؤ القيس ، وجرير قال : النابغة ، والأخطل قال : الأعشى ، وابن أحمر قال : زهير ، وذو الرمة قال : لبيد ، والكميت قال : عمرو بن كلثوم ، قال القيرواني : (وهذا يدلك على اختلاف الأهواء، وقلة الاتفاق) (الأزدي، ت 463 هـ – 1981 م.، صفحة 29) .

ومع اختلاف الآراء في طرفة لا عجب أن تكثر فيه الأقوال الحسنة والمدح المستفيض ، فهو شاعر من الشعراء الفحول ، ونابغة من نوابغ الدهر ، إلا أنه مما يعجب له حقا ، ويجلب الانتباه صدقا ، هو بناء أغلب الأحكام تلك على بيت من أبيات قالها في معلقته ، هو :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وحتى مضى هذا البيت معيارا نقديا إذا جاز لنا التعبير ومظهرا من مظاهر نبوغه وفحولته .

الأحكام النقدية التي أطلقت على بيت الاستراثة :

- **أحكم ما قالت العرب وأوجزه :**

إن مصادر الحكمة متعددة ، ومنابعها كثيرة ، فالحكمة ثمرة التجارب الكثيرة ، وربما المتكررة التي يعيشها صاحبها في حياته الطويلة ،وقد تكون انعكاسا لثقافته وحرصه على الإفادة من تجارب الآخرين ، أو تكون نتيجة لاطلاعه على فلسفات حاضرة ورؤى جاهزة يتعمق فيها ويستوعبها ولو في وقت قصير ، لتكون منارا يحتذى به ومنبعا لفهمها والتمثل بها في كل وقت ، وهذا ما نجده عند أغلب الشعراء .

والحكمة جزء من الفلسفة ، قائمة على مقدمات ونتائج منطقية ، من دون أن تكون مشروطة بالخوض في تعليل مظاهر الوجود فقط ، فيكفي أن تسعى إلى إدراك الواقع الاجتماعي لمطلقها ولمجتمعه ، ومحاولة تطويره نحو الأفضل ، من خلال فهم الأسباب والنتائج التي تحقق له السلامة في تعاملاتهم اليومية (الشعيبي، 2002 ، صفحة 113) .

وقلما تخرج الحكمة من أفواه الشباب ذوي التجارب القليلة ، والرؤى السطحية التي لا تتشكل من عمق التفكير ، أو كثرة التأمل في الخلق والخليقة ، لكننا نصدم بطرفة ابن العشرين ، وبمعلقته التي حوت بيت الاستراثة بما تحمل من كم هائل من الحكمة لا تصدر إلا من عقل نير وقلب واع حتى أصبح كثير من أبياتها أمثالاً يقتدى بها، وفلسفة عفوية تصلح للحياة في كل زمان ومكان ، وعبقرية فذة تنم عن شخصية قوية ، وقدرة عالية على معرفة ما يدور حوله وتمكن في التعبير عن ذاته وما يجول في فكره ، فبرز شاعرا حكيما على الرغم من صغر سنه ، وعيشه في بيئة ساذجة لا توفر له الاطلاع على تجارب الأمم أو فلسفات الشعوب ، منطلقا من مظلوميته التي عاشها بمعاناة ، ومن طموحه في أن يعيش حياة كريمة مستقلة .

وكلما قدمت الحكمة للمتلقي بإيجاز في العبارة وبأقل الألفاظ كانت أبلغ وأوقع في النفس ، لذا ركز الشعراء النقاد وعلماء النقد والمهتمين بالشعر على فضل الإيجاز والتنويه به ، وجعله مظهرا من مظاهر البلاغة الحقة ومطلبا بلاغيا تتطلبه مقتضيات الكلام في كثير من المواقف

والإيجاز كما عرفه الجاحظ هو : (الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة) (بالجاحظ، 1424 هـ)، كما أن الإيجاز بنظره : أداء حاجة المعنى ، وإن كانت الألفاظ كثيرة ، فقد يطول الكلام وهو في رأيه إيجاز لأنه وقف عند منتهى البغية ولم يجاوز مقدار الحاجة .

وقد وصف بيت طرفة من ضمن ما وصف أنه من أحكم ما قالت العرب وأوجزه ، فقد روي عن الْعُتْبِيُّ أن الشعبي نديم الخليفة عبد الملك بن مروان دخل عليه ، فطلب عبد الملك منه أن ينشده أَحْكَمَ مَا قَالَتِ الْعَرَبُ

وَأَوْجَزَهُ ، فذكر بيت طرفة بن العبد موضع البحث من ضمن أحد عشر بيتا لفحول الشعراء جاعلا إياه خامسا في الترتيب بعد أبيات لامرئ القيس وزهير والنابغة وعدي بن زيد (الحِنَّائِي، 2007 م ، صفحة 1146) ، وقبل عبيد ولبيد والأعشى والحطيأة ، والحارث بن عمرو، والشماخ ، وقد حاجج عبد الملك الشعبي بِقَوْلِ طُفَيْلٍ الْغَنَوِيّ

وَلا أُخَالِسُ جَارِي فِي حَلِيلَتِهِ وَلا ابْنَ عَمِّي غَالَتَنِي إِذًا غُولُ

حَتَّى يُقَالَ وَقَدْ وَلِيتُ فِي جَدَثٍ أَيْنَ ابْنُ عوف أبو قران مجعول

لأن عبد الملك يجد هذين البيتين من أحكم ما قالت العرب وأوجزه (الحِنَّائِي، 2007 م ، صفحة 1146)

وقد أصاب القاضي أبو الفرج النهرواني (ت 390 هـ) في اعتراضه في كتابه الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي على محاججة عبد الملك للشعبي بقول طفيل الغنوي المذكور ، وعقده موازنة بين بيت النَّابِغَة :

ولَسْتَ بمستبقٍ أَخا لَا تلمُّهُ على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

وبيت الشماخ

وكلُّ خليلٍ غيرِ هَاضِمِ نَفسِهِ لوصْلِ خليلٍ، صارمٌ أَوْ مُعَارِزُ

الواردين من ضمن تفضيلات الشعبي لما بينهما من وحدة الموضوع ، ومجيئهما على بيت واحد لا ثاني لهما ، خلافا لبيت طفيل الغنوي الذي جاء على بيتين يكمل أحدهما الآخر ، فلم يتحقق فيهما شرط الإيجاز ، كما هو متحقق في بيتي النابغة والشماخ وباقي الأبيات بما فيهما بيت طرفة ، مع ما في بيتي طفيل الغنوي من فضل وحكمة ، قال القاضي أبو الفرج : (إِن جملَة الْأَلْفَاظ للبيتين الَّتِي تجمعهما عَلَى معنى وَاحِد، هُوَ أَن الَّذِي يحفظ الْأُخوة بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ، ويحرس الْخلَّة بَيْنَ الخليلين أَن يَلمّ أَحَدهمَا صَاحبه عَلَى شَعَثِهِ ويَهْضِمَ لَهُ نَفسه، وَمَتى لَمْ يفعل هَذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى ثِقَة من استبقائه وَكَانَ بِعرْض مُصارمته، وانقباضه عَنْهُ) (390هـ)، 2005 م، صفحة 394) .

وقد حكم القاضي أبو الفرج بعد هذه الموازنة بأنَ (بَيت النَّابِغَة فِي هَذَا الْبَاب أفحل وأوفى ، وأجزل وأشفى ، ولا سيما أن النابغة كشف عَنِ الْعلَّة فِيمَا أَتَى بِهِ بقوله: أَيّ الرِّجَال المهذّب، فَأحْسن الْعبارَة عَنْ هَذَا الْمَعْنى) (390هـ)، 2005 م، صفحة 394) ، واعتمد القاضي في حكمه هذا على تحليل بيتي النابغة والشماخ ، فضلا

عما ذكره رُواةُ الشّعْر ونَقَلَتِه، ونُقَّاده وجهابذته ، الذين استحسنوا قول النابغة ووصفوه (بتكافُؤَ أَجْزَائِهِ، واستقلال أَرْكَانه، واشتماله عَلَى فِقَر قَائِمَة بأنفسها، كَافِيَة كُلّ وَاحِدَة مِنْهَا، وَهَذَا من النَّوْع الْمُسْتَفْصح، والفن المستعذب، من أَعلَى طَبَقَات البلاغة) (الدميري، 2003 م، صفحة 440) .

- **أسير بيت قالته العرب :**

حكم ابن القِرّيّة (ت 84 هـ) (الإربلي، 1900 م، صفحة 82)على بيت طرفة موضع الدرس أنه أسير بيت قالته العرب في محاورة بينه وبين الحجاج ، جوابا لسؤال الحجاج (ت 95 هـ) عن أسير بيت قالته العرب (عساكر، 1995 م، صفحة 69) ، نحن نذهب إلى ما ذهب إليه ابن القِرّيّة ، وذلك لأن سير البيت مسرى الأمثال والاستشهاد به في كل حادثة مقاربة لمعناه أكبر دليل على ذلك .

وقد عاب ابن عبد ربه (ت 328 هـ) على الأصمعي إهماله بيت طرفة وعدم ذكره من ضمن الأبيات التي أولها مثل آخرها في كونهما (شطرا البيت) أسير الأبيات على ألسنة العرب قاصرا ذلك على ثلاثة أبيات فقط بقوله : (لم أجد في شعر شاعر بيتاً أوّله مَثلٌ وآخرُه مَثل إلا ثلاثة أبيات) منها بَيْتٌ للحطيأة :

مَن يفعل الخيرَ لا يَعْدَم جَوَازِيَه لا يذهبُ العُرْف بين الله والناس

وبيتان لأمرئ القيس :

وأفلتهنَّ عَلبَاءٌ جَريضاً ولو أدْرَكْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ

وقاهم جَدُّهم ببني أبيهم وبالأَشْقَين ما كان العِقَابُ .

قال ابن عبد ربه : (ومثلُ هذا كثير في القديم والحديث ولا أدري كيف أغفل القديمَ منه الأصمعيُّ . فمنه قولُ طرفة :

ستُبْدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً وَيأتيكَ بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

وفي هذا مثلان من أشرف الأمثال. ويقال إنَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سَمع هذا البيت فقال: إنَّ معناه من كلام النبوَة ... ففي الصَّدْر مَثَل وفي العجز مَثَل) ' فابن عبد ربه يعجب من الأصمعي ويستنكر إغفاله بيت طرفة مبينا عبارة (أوّله مَثلٌ وآخرُه) بأن شطري البيت متساويان في كون كل واحد منهما يصلح لأن يكون مثلا مستقلا سائرا ، وقد انكر ابن عبد ربه اغفال الأصمعي لبيت طرفة لأنه بنظره يحوي أشرف مثلين ،

على أن أمثالا قد تسير في عصر دون غيره ، لكن بيت طرفة سائر في كل عصر لذلك تجد الثعالبي يصفه بأنه (من أمثاله السائرة على وجه الدهر .. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل به ولا يقيم وزنه ، وكان ابن عباس يقول: أنه كلام نبي!) (الثعالبي، 1985م ، صفحة 132) .

ومما تجدر الإشارة إليه اقتران الأبيات السائرة مسرى الأمثال عند بعض النقاد القدامى بالتشبيه والتمثيل والاستعارة ، فقد ذكر ابن وكيع التنيسي (ت 393هـ) بيت طرفة شاهدا على الأمثال السائرة ، حين ذكر أقسام الشعر تحت عنوان التشبيه بقوله : (أمّا أقسام الشعر فهي إما مثل سائر أو تشبيه باهر أو استعارة لفظها فاخر، فالمثل السائر والتشبيه الباهر أشهر من أن يشكل عليك فتحتاج إلى إيضاح) (محمد، 1994 م ، صفحة 149) .

وأشار ابن رشيق القيرواني (ت 459 هـ) إلى أن التمثيل والاستعارة في هذا البيت من التشبيه من غير أداة ؛ لأن معناه : ستبدي لك الأيام كما أبدت لغيرك ، ويأتيك بالأخبار من لم تزود كما جرت عادة الزمان (الأزدي، ت 463 هـ – 1981 م.، صفحة 280) قال القيرواني : (وتسمية المثل دالة على ما قلته ؛ لأن المثل والمثل والشبيه والنظير، وقيل: إنما سمي مثلاً لأنه مائل لخاطر الإنسان أبداً ، يتأسى به ، ويعظ ويأمر ويزجر، .. وقال قوم: إنما معنى المثل المثال الذي يحذى عليه ، كأنه جعله مقياساً لغيره، وهو راجع إلى ما قدمت ، وقال بعضهم : في المثل ثلاث خلال : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه) .

من كل ما سبق يمكننا القول بأن المثل والحكمة مرتبطان ارتباطا وثيقا ، لأن أغلب الأمثال اقترنت بالتجارب الإنسانية ، لذا جاءت بعض حكم الشعر الجاهلي معبرة عن تجارب الشعراء ،فسارت مسرى الأمثال واحتوت عصارة تلك التجارب التي عبرت عن حياتهم بدقة متناهية .

- **في البيت تضمين :**

ذكر الأخفش أن في بيت طرفة تضمينا (بثعلب، 1995م ، صفحة 10) ، وفي الحقيقة أن هذا التضمين متعلق بالبيت الذي يليه وهو قوله (الجاهلي، 2002 م، صفحة 29) :

وَيَأتِيك بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ له بَتاتًا، ولم تَضْرِبْ له وقْتَ مَوعِدِ

وللتضمين في الشعر مفهومان نبه عليهما أبو الهلال العسكري ، الأول : افتقار الفصل الأول إلى الفصل الثاني ، أو احتياج البيت الأول للآخر (العسكري، 1371هـ، صفحة 13) ، والآخر : (استعارتك

الأنصاف والأبيات من شعر غيرك، وإدخالك إياه في أثناء أبيات قصيدتك تضميناً) (العسكري، 1371هـ، صفحة 13).

ولا يعنينا في هذا المقام النوع الثاني الذي ذكره العسكري فهو من المحسنات اللفظية التي يعمد إليها الشعراء لتزيين الكلام وتقويته أو تأكيد المعنى الذي يريدون التعبير عنه بنصوص معروفة أو مشهورة لها وقع في النفس ورسوخ في الذهن كنصوص شعرية لغيرهم ، أو حتى نصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وقد حكم العسكري على هذا النوع من التضمين بالحسن (العسكري، 1371هـ، صفحة 13) .

وما يعنينا من التضمين هو النوع الأول الذي عُدّ من عيوب الشعر ، وهو أحد عيوب القافية تحديدا (المرزباني، 2008 م، صفحة 41) ' فقد جعل بعض النقاد التضمين من عيوب الشعر مع غيره من العيوب ، نحو : اللحن، و السناد، و الإيطاء، و الإقواء، و الإكفاء ، و الكسر، و الإحالة ، و التناقض، و اختلاف اللفظ، و هلهلة النسج (المرزباني، 2008 م، صفحة 41) .

إن أول من حدد عيوب الشعر بحسب ما وصل إلينا الخليل بن أحمد الفراهيدي مشبها البيت الشعري ببيت الشَعَر عند العرب ، وعيوب القافية بما في بيت الشَعَر من عيوب ، قال : (رتَّبْتُ البيت من الشعر ترتيب البيت من الشَّعَر يريد الخِباء، قال: فسمّيْتُ الإقواء ما جاء من المرفوع في الشِّعر والمخفوض على قافية واحدة. وإنما سمّيتُه إقواءً لمخالفته، لأن العرب تقول: أقوى الفاتلُ إذا جاءت قوّةٌ من الحبل تخالفُ سائِرَ القُوى. قال: وسمّيْت تغيُّرَ ما قبل حرفِ الرَويّ سِنادا؛ من مساندة بيت الى بيت إذا كان كلُّ واحدٍ منهما مُلقىً على صاحبه، ليس هو مستوياً كهذا، قال: وسمّيْتُ الإكفاءَ ما اضطربَ حرفُ رَويّه فجاء مرةً نوناً ومرة ميماً ومرة لاماً، وتفعل العرب ذلك لقُربِ مَخْرج الميم من النون، ... مأخوذ من قولهم: بيت مُكفأ إذا اختلفَتْ شِقاقُه التي في مؤخَّره والكفاء: الشقة في مؤخر البيت. والإيطاء ردُّ القافية مرتين، .... وأما التَضمين فهو أن يُبنى البيتُ على كلامٍ يكون معناه في بيت يتلوهُ من بعدِه مُقتضِياً له . كقول الشاعر:

وسعْدٌ فسائِلْهُم والرِّبابُ وسائلْ هَوازنَ عنّا إذا ما

لَقيناهُمُ كيف تعلوهُمُ بَواتِرُ يَفْرينَ بَيْضاً وهاما) .

وعلاقة البيت الأول بالثاني علاقة اقتضاء وافتقار كما عبر عنها النقاد الشعر ، و الاقتضاء: أن يكون في البيت الأول اقتضاء للبيت الثاني ، و في البيت الثاني افتقار إلى البيت الأول (المرزباني، 2008 م، صفحة 41).

وقد شدد المظفر بن الفضل العلوي (ت 656هـ) على أن هذه العيوب لا يجوز للمولدين الوقوع فيها لمعرفتهم قُبْحَها، وشهدوا لذْعها ولَفْحَها .

ولا يعد كل تضمين عيبا ، فمنه ما يكون مقولا ، بل محمودا ، ومنه ما يكون عيبا ، والأخفش يلمح لهذين القسمين بجعل أحدهما قبيحا والآخر حسنا ، مستشهدا على الحسن ببيت طرفة ، فلو (كان كُلُّ ما يُوجُد ما هُوَ أَحْسَنُ منه قَبيحًا كان قولُ الشاعرِ

سَتُبْدِي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويَأْتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّد

رَديئا إذا وَجَدْتَ ما هو أَشْعَرَ منه) (اَلْأَصْفَهَانِيّ، صفحة 166) ، ولم يعد الأخفش التضمين في بيت طرفة عيبا قبيحا ، بل حسنا ، لأنه مكتف بذاته ، فلا يحتاج إلى ما بعده ، وما البيت الذي يليه إلا زيادة في تقوية المعنى وترسيخه .

وقد أيد ابن جني رأي الأخفش وجعله مذهبا للعرب تستجيزه وهو مما يؤيده السماع والقياس (أما السماعُ فلِكَثْرَة ما يَرِدُ عنهم من اَلتَّضْمِين وأما القياسُ فلأَنَّ العربَ قد وضَعَتِ الشِّعْرَ وَضْعًا دَلَّتْ به على جَوازِ اَلتَّضْمينِ عندهم) (الموسي، 2000 م ، صفحة 215) .

وقد جعل الأخفش للقبيح والحسن من التضمين معيارا واضحا لا لبس فيه بقوله : (إِن كُلَّ بَيْتٍ مِنَ اَلْقَصِيدَةِ شِعْرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ، ... وإِذا كانتِ اَلْحَالُ عَلى هَذا فَكُلَّما اِزْدادتْ حَاجَةُ اَلْبَيْتِ الأَول إِلى اَلثَّانِي وَاَتَّصل بِهِ اِتِّصَالًا شَدِيدًا كانَ أَقبح مِمَّا لَمْ يَحْتَجِ الأَول فِيهِ إِلى اَلثَّانِي هَذِهِ اَلْحَاجَةَ) (الموسي، 2000 م ، صفحة 215)

إن حاجة البيت للذي يليه ترتبط بالتعلق اللفظي أو التفسيري بينهما ، فعد التضمين الحاصل نتيجة تعلق لفظي قبيحا ،وعد التضمين الحاصل نتيجة تعلق تفسيري حسنا ، أو بمعنى أدق : ما وقف عليه تام المعنى بتمام أركان الجملة أو ما هو بحكمهما ـ المسند والمسند إليه ، منسوخين وغير منسوخين ـ أو بتمام وجود المتلازمين ـ الاسم الموصول وصلته ـ فلا يعد التضمين فيه عيبا ، وما وقف عنده ناقص المعنى لنقص أركانها أو الفصل بين المتلازمين ، عد عيبا ، وعليه فإن قول اَلرَّبِيعِ بن ضَبُعٍ اَلفَزَارِيّ (سيبويه، 1988 م ، صفحة 89)

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ اِلسِّلاحَ ولا أَمْلِكُ رأسَ البَعيرِ إنْ نَفَرا

والذِّئْبَ أخشاهُ إنْ مَرَرْتُ بِه وَحدي وأَخْشَى الرِّياحَ والمَطَرَا

من حسن التضمين كما عبر عنه سيبويه (المصوي م.، صفحة 215)، لأن أركان الجملة في البيت الأول تامة ، تتمثل بالفعل الذي استوفى مفعوله وبالفاعل (أحمل السلاح) و (أملك رأس البعير) ونصب الذئب في البيت الثاني على أنه معطوف على (رأس البعير) في البيت الأول (واخْتيار النَّحْوِيّين له حيث كانت قَبْلَه جُملة مُرَكَّبة من فِعْلٍ وفاعِلٍ وهي قولُه لا أَمْلِك يُدُّلك على جَرْيِه عند العرِبِ والنحوِيّين جميعاً مَجْرَى قَوْلِهِمْ: ضَرَبْتُ زَيْدًا وَعَمْرًا لَقِيتُهُ، فكأنه قال: وَلَقِيتُ عَمْرًا لِتَتَجانَسَ الْجُمْلَتانِ فِي التَّرْكِيبِ، فَلَوْلا أَن الْبَيْتَيْنِ جَمِيعًا عِنْدَ الْعَرَبِ يَجْرِيَانِ مَجْرَى الْجُمْلَةِ الْوَاحِدَةِ لَمَا اخْتَارَتِ الْعَرَبُ وَالنَّحْوِيُّونَ جَمِيعًا نَصْبَ الذِّئْبِ، وَلَكِنْ دَلَّ عَلَى اتِّصَالِ أَحد الْبَيْتَيْنِ بِصَاحِبِهِ وَكَوْنِهِمَا مَعًا كَالْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَحُكْم الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ أَن يَجْرِيَا مَجْرَى الْعُقْدَةِ الْوَاحِدَةِ، هَذَا وَجْهُ الْقِيَاسِ فِي حُسْنِ التَّضْمِينِ) (العوسي، 2000 م ، صفحة 215) .

ومن التضمين الحسن ما في بيتي امرئ القيس مثلا :

و تعرف فيه من أبيه شمائلا و من خاله و من يزيد و من حجر

سماحة ذا و برّ ذا و وفاء ذا و نائل ذا، إذا صحا و إذا سكر

فالبيت الأول تام المعنى يحسن الوقوف عنده ولا يحتاج تمامه إلى البيت الثاني ، وما البيت الثاني إلا تفصيل للمفعول به (شمائلا) الذي استوفاه الفعل (تعرف) في البيت الأول ، وتفسير له ، فسماحة ذا ، وبر ذا ووفاء ذا ونائل ذا ، كلها بدل من شمائل والبدل فضلة لا يخل بالمبدل عنه وجملته عدم وجوده ، فالتضمين (لم يحلل قافية البيت الأول، مثل قوله: «إنى شهدت لهم». و قد يجوز أن يوقف على البيت الأول من بيتي امرئ القيس) (المرزباني، 2008 م، صفحة 41) .

أما التضمين القبيح فمنه قول النابغة الذبيانى .

و هم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صالحات أتينهم بحسن الودّ مني

لاحتياج البيت الأول للثاني لفظا فضلا عن المعنى ، لأن البيت الأول منته بالحرف المشبه بالفعل (إن) والضمير الواقع اسما لها ، ولم يأت خبره في البيت نفسه ، بل في صدر البيت الذي يليه ، والخبر كما هو معروف ركن أساسي من أركان الجملة .

و مثال التضمين المستهجن أيضا قول الشاعر (الشجري، 1991 م، صفحة 54) :

وَلَيْسَ المالُ، فاعْلَمْهُ، بمالٍ مِنَ الأَقْوامِ إلا لِّلَذِي

يُرِيدُ بِهِ العَلاءَ وَيَمْتَهِنْهُ لأَقْرَبِ أَقْرَبِيه، وللَقصِي

إذ جعل البيت الأول شديد الاتصال بالثاني لوجود الاسم الموصول في آخر البيت الملازم لصلته في البيت الثاني .

وعليه فإن التضمين الحاصل في بيت طرفة من التضمين الحسن ، وهو لا يتعارض مع الإيجاز الذي تحدثنا عنه سابقا إذ يبقى البيت مستقلا بذاته ، لعدم تعلق البيت الأول بالثاني تعلق إسناد ، بل تعلق عطف ، فبالنظر إلى البيت الثاني :

وَيَأتِيك بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ له بَتاتًا، ولم تَضْرِبْ له وقْتَ مَوعِدِ

يشبه الأول من حيث المعنى وإن اختلف التشبيه ، فبالأول شبه المتريث أو المنتظر للخبر. فتأتي به الأيام من دون أن يزود أحدا زاد السفر والرحيل طلبا له . بغيره ممن زود غيره ليسافر ويأتيه بالخبر ، وبالثاني شبهه بمن جاءه بالخبر مقابل ثوب أعطاه إياه في موعد محدد .

فالمعنيان متشابهان في البيتين لم يجمعهما سوى حرف العطف الواو ، الذي عطف جملة على جملة تشابهها في المعنى ويمكن الاستغناء عنها ، فلم يأت بها الشاعر إلا لتعضيد المعنى وتكراره ليتمكن من النفس ، ويعلق في الذاكرة ، لا لكون البيت الأول محتاجا إلى الثاني في تمام معناه ، وبيانه .

ومن المناسب أن ننظر إلى البيتين الحاصل بينهما تضمين من زاوية أخرى، وهو حاجة البيت الثاني للأول وليس العكس ، فالتضمين القبيح الماثل في بيتي النابغة وغيره قبح نتيجة حاجة لفظية ومعنوية واضحة في البيت الأول ،ولا يصح الاستشهاد بالأول من غير الثاني ، ولكن التضمين الحسن يصح الاستشهاد بالأول من دون الحاجة

إلى ذكر الثاني ، ولكن ماذا عن البيت الثاني ؟ هل يصح الاستشهاد به من دون الأول ؟ يبدو أن التضمين بالتعريفات السابقة فيها محل نظر ، فلا يصح بنظري تخصيص التضمين بالبيت الأول لحاجته للثاني ، فربما يكون البيت الثاني هو ما يحتاج إلى الأول ،ولا يصح ذكره من دون الأول كما هو في بيتي امرئ القيس :

و تعرف فيه من أبيه شمائلا و من خاله و من يزيد و من حجر

سماحة ذا و برّ ذا و وفاء ذا و نائل ذا، إذا صحا و إذا سكر

فالأبدال في البيت الثاني تابعة للمبدل منه في البيت الأول ، وهي منصوبة على التبعية ، ولا يصح الاستشهاد بالبيت الذي يحويها ما لم يذكر البيت الأول ، وعليه قد يكون التضمين واقعا في البيت الثاني للبيت الأول ، ويكون التعلق مرهونا بالبيت الأول وليس العكس ، نلمس ذلك من تعريف الخليل للمتضمن الذي هو من التضمين ، قال : (والمُضَمَّنُ من الشِّعْر : ما لم يَتَمَّ معنى قوافيه إلّا في الذي قبَله أو بعَده كقوله :

يا ذا الذي في الحُبِّ يَلْحَى أَما واللهِ لو عُلِّقَتَ منه كَما عُلِّقْتُ من حُبِّ رَخيمٍ لَمَا)

ومع كون البيت التالي لبيت طرفة هو تفسير له وتقوية لمعناه لم يكن التعلق شديدا مع وجود حرف العطف (الواو) لأنه عطف جملة تامة المعنى على جملة تشبهها في المضمون تامة المعنى ، حتى ليمكن الاستشهاد بالبيتين منفصلين عن بعضهما ، وحتى ليمكن أن يكونا مثلين يعبران عن معنى واحد اثبتا حضورهما بمعزل عن بعضهما ، وهو ما يدل على براعة طرفة في التأليف والنظم ، وإدراكه وجوب جعل كل بيت من أبياته الشعرية قصيدة بحد ذاته .

- **خلو البيت من المبالغة :**

من المعايير النقدية التي عرفت لدى الناقد في صدر الإسلام الصدق الواقعي وعدم المبالغة ، وقد عرف قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) المبالغة بقوله : (هي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له) (الفرج، 1302 هـ ، صفحة 50) ، وهي كما عرفها الدارسون : (ادعاء المتكلم لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستبعدا أو مستحيلا ، وتنحصر في التبليغ إن كان ذلك الادعاء للوصف من الشدة أو الضعف ممكنا عقلا وعادة ، وفي الإغراق إن كان الادعاء للوصف ممكنا عقلا لا عادة ، وفي الغلو إن كان مستحيلا عقلا وعادة) (المبالغة في الشعر الجاهلي ، العدد 2 ، المجلد 11 ، 2007 م ، صفحة 412) ، فقد حصروها

في أمور ثلاثة : التبليغ ، والإغراق ، والغلو (المبالغة في الشعر الجاهلي ، العدد 2 ، المجلد 11 ، 2007 م ، صفحة 412) .

واختلف نقاد الشعر في المبالغة بحسب ما بين ابن أبي الإصبع المصري (ت 654هـ) (العدواني، صفحة 41) ، فمن النقاد من يرى أن أجود الشعر أكذبه ، وأن خير الكلام ما كان مبالغا فيه ، محتجين على ذلك باستدراك النابغة الذبياني على حسان بن ثابت في قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

إذ عاب الذبياني على حسان ترك المبالغة ، والقصة معروفة (المرزباني، 2008 م، صفحة 69) .

ومنهم من يجعل المبالغة من عيوب الكلام ، والشعر منه ، ولا يرون للمبالغة محاسن إلا ما خرج مخرج الصدق ، وجاء على منهج الحق ، فبنظرهم أن الصواب كان مع حسان ، لأن المبالغة عندهم (من ضعف المتكلم ، وعجزه عن أن يخترع معنى مبتكراً ، أو يفرع معنى من معنى، أو يحلى كلامه بشيء من البديع، أو ينتخب ألفاظاً موصوفة بصفات الحسن، ويجيد تركيبها، فإذا عجز عن ذلك كله أتى بالمبالغة لسد خلله، وتتميم نقصه، لما فيها من التهويل على السامع، ويدعون أنها ربما أحالت المعاني فأخرجتها من حد الإمكان إلى حد الامتناع) (العدواني، صفحة 148) .

ويرى ابن أبي الإصبع المصدري أن المذهبين مردودان نظرا لمن قال : إن خير الكلام ما بولغ فيه لأن أكثر الكلام والأشعار جارياً على الصدق ، وخارجاً مخرج الحق ، فكان في غاية الجودة و الحسن ، وتمام القوة (العدواني، صفحة 148) .

وإلى هذا ذهب صاحب الطراز يحيى بن حمزة العلوي (ت 745 هـ) ، قال : (أما من عاب المبالغة فقد أخطأ، فإن المبالغة فضيلة عظيمة لا يمكن دفعها ولولا أنها في أعلى مراتب علم البيان لما جاء القرآن ملاحظا لها في أكثر أحواله، وجاءت فيه على وجوه مختلفة لا يمكن حصرها، فقد أخطأ من عابها على الإطلاق، وأما من استجادها على الإطلاق فغير مصيب على الإطلاق أيضا لأن منها ما يخرج عن الحد فيعظم فيه الغلو والإغراق فيكون مذموما كما سيحكى عن أقوام أغرقوا فيها وتجاوزوا الحد بحيث لا يمكن تصور ما قالوه على حال قرب ولا بعد، لكن خير الأمور أوساطها، فما كان من الكلام جاريا على حد الاستقامة من غير إفراط ولا تفريط فهو الحسن لا مراء فيه، فيكون فيه نوع من المبالغة من غير خروج ولا تجاوز حد) (بالله، 1423 هـ، صفحة 65) .

ومحاسن الكلام على ضروب لا تنحصر ، فإذا كانت المبالغة حسنة ، فهي ضرب واحد من تلك المحاسن ، ولا يجوز أن يفضل ضرب واحد من المحاسن على سائر المحاسن (العدواني، صفحة 148) .

وتجد مصداق ذلك في آراء كبار شعراء العصر الإسلامي ونقاده أمثال زهير والحطيأة وحسان ومن ذهب مذهبهم في توخي الصدق في شعره في الغالب ، ومن أمثلة ذلك ما روي من قول الحرورية امرأة عمران بن حطان الخارجي له يوماً : (أنت أعطيت الله عهداً ألا تكذب في شعرك ، فكيف قلت :

فهناك مجزءة بن ثو ر كان أشجع من أسامه

فقال: يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده، وما سمعت بأسد فتح مدينة قط) (القاهري، صفحة 212) .

ويرى ابن أبي الإصبع أن هؤلاء الفحول وإن رجحوا مذهب الصدق وترجيحه على الكذب فهم لا يكرهون مجانبة الواقع والمبالغة في وصفه ، بل قلما تخلو بعض أشعارهم من تلك المبالغة (إلا أن توخى الصدق كان الغالب عليهم، وكانوا يكثرون منه، ومن أكثر من شيء عرف به، كما أن النابغة ومن شايعه على مذهبه لا يكره ضد المبالغة، وإلا .. فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساطها) (العدواني، صفحة 149) .

وقد رجح طرفة عدم المبالغة في شعره عموما، فهو القائل (الجاهلي، 2002 م، صفحة 57) :

إن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا انشدته : صدقا

والبيت موضع الدراسة مصداق لما ذكر في البيت السابق ، فقد توخى طرفة الصدق في الوصف ، حتى وصف النبي بيته هذا بأنه من كلام النبوة (الدينوري، عيون الأخبار، 1418 هـ، صفحة 207) ، لصدقه ومطابقته للواقع ، وحتى غدا طرفة في أشعاره في الطبقة العليا من البلاغة وإن خلت من المبالغة ، كما هو واضح ، وكما صرح بذلك ابن أبي الإصبع المصري (العدواني، صفحة 148) .

لقد ناقش أبو إسحاق الحُصري القيرواني (ت 453هـ) المعاني المطروقة في الكلام عموما ، والشعر خصوصا ، وصرح أنها دائما محل نظر وانتقاد ، لاختلاف الآراء ، وتباين وجهات النظر ، قال : (قلما ترى معنى إلا وهو يدافع أو يناقض ويحار به عن سواء المحجّة ، وقيل : من طلب عيبا وجده) (القيرواني، صفحة 1164) .

وقد استثنى أبو عمرو بن سعيد القطربلي من هذا الإطلاق أقوالا لشعراء ، لما تحمل من معان صادقة ومطابقة للواقع ، باعتماده على معيار المبالغة ، جاعلا بيت طرفة من ضمن الأبيات التي لا عيب فيها ولا طعين لخلوها من المبالغة ولمطابقتها للواقع ، قال : (ليس من بيت إلا وفيه لطاعن مطعن، إلا قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول طرفة بن العبد:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وقول علي بن زيد:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقتد)

وقد أنكر أبو عمرو بن العلاء كون بيت طرفة أصدق بيت قالته العرب ، وأن ليس فيه لطاعن مطعن ، فقد جعل بيت الحطيأة أصدق بيت مطلقا ، فقيل له اعتراضا على اطلاقه الحكم بالصدق على الحطيأة دون غيره : (فقول طرفة بن العبد:

سَتُبْدِي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فقال : مَن يأتيك بها ممن زودت أكثر، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن، إلا قول الحطيأة هذا) (المصري ع.، صفحة 166) .

ونحن نتفق مع أبي عمر بن العلاء في ما ذهب إليه ، إ إن الخبر يحتمل الصدق والكذب ، فبيت طرفة يحتمل الاثنين معا ، فقد يأتيك بالخبر من كلفته بذلك ، أو من لم تكلفه ، ولكن بيت الحطيئة لا يحتمل الكذب مطلقا ، فإن الله سبحانه وتعالى أكد في القرآن الكريك هذا المعنى في أكثر من آية منها قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) ، وقال : (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) ، أي أنه سبحانه وتعال لا بد من أن يجزي من قام بالخير خيرا .

- **بيت طرفة من المصلي :**

روى الأصمعي أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (ت 126 هـ) قال ذات ليلة لجلسائه : (خبروني بسابق الشعراء والمصلي والثالث والرابع فسكتوا ، ثم قالوا له : إن رأى الأمير أصلحه الله أن يخبرنا بذلك فعل ، قال (الإفريقى، 1984م، صفحة 104) : سابق الشعراء قول المرقش (القرشي، ت 170هـ، صفحة 284) :

من يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

والمصلي قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

والثالث قول النابغة (الذبياني، 1976م، صفحة 75) :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

والرابع قول القطامي (الذبياني، 1976م، صفحة 25) :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ويبدو أن الألقاب التي ذكرها ابن أبي بردة : السابق والمصلي والثالث والرابع إنما هي مستوحاة من ألقاب خيل السباق ، إذ تعددت ألقاب الخيول التي تشارك في السباق بحسب أحوالها ، وقد كانت القبائل ترسل مجموعات مكونة من عشرة خيول في كل مضمار ، لتتنافس فيما بينها في العدو ، وليفوز في النهاية واحد منها في قصب السبق ، ويقصد بقصب السبق ، أن كل مضمار ترتب فيه الخيول في نقطة الانطلاق في أول المضمار ، ويضعون قصبة في نهايته ، فإذا سبق أحدها الآخرين ووصل إلى نهاية المضمار اقتلع القصبة ، تعبيرا عن وصوله إلى النهابة وفوزه بها ، فيقال حاز على قصبة السبق (الأندلسي ع.، 1949 م، صفحة 33)

وابن أبي بردة استعار لقبي السابق و المصلي من دون غيرهما من ألقاب الخيول ، ويقصد بالسابق الأول والمصلي الثاني (الجواليقى، صفحة 114) ، جاء في المعجم الوسيط أن (المصلى من خيل السباق الذي يتلو السابق ، ويستعار للإنسان ، إذا كان تاليا للأول في أي عمل كان) (النجار، صفحة 421).

وقد أنكر الأصمعي وأبو عبيدة أن يكون للثالث والرابع من الخيل اسما إلى العاشر فإنه يسمى سكيتا ، قال : (ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر فإنه يسمى سكيتاً ، قال أبو عبيدة : لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسما لشيء منها إلا الثاني والعاشر فإن الثاني اسمه المصلي والعاشر السكيت وما سوى ذينك يقال : الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع ثم السكيت ... وإنما قيل للسكيت سكيت لأنه آخر العدد الذي يقف العاد عليه) ‘ ويبدو أن الأصمعي وأبو عبيدة بنيا حكمهما على ما سمعا من حديث ابن أبي بردة الذي لم يسم الثالث والرابع ، وعلى ما جرى من قصر تشبيه شعراء النقائص : جرير والأخطل والفرزدق على السابق والمصلي والسكيت فقط ، (قال العلاء بن جرير ـ وكان قد أدرك الناس وسمع ـ كان يقال الأخطل إذا لم يجئ سابقا فهو سكيت والفرزدق لا يجيء سابقا ولا سكيتا فهو بمنزلة المصلي أبدا وجرير يجيء سابقا ومصليا وسكيتا) ‘ وقد فسر ابن سلام قول العلاء بن جرير شيخ الأصمعي أن للأخطل خمسا أو ستا أو سبعا من القصائد الطوال التي نبغ بها وأجاد حتى كان سابقا فيها غيره ، أما باقي شعره فهو دون شعر جرير والفرزدق فهو في حكم السكيت بالنظر إلى ما تمتعوا به من جودة شعر ونبوغ فكر ، فحكم عليه بالسبق مرة وبالسكوت مرة ، ولم يكن مصليا أبدا ، وجرير كان متذبذبا في الجودة في أشعاره فله قصائد فيها من الجودة والنبوغ ما يمكن أن يحكم له بالسبق ، وله قصائد فيها ما هو أقل من ذلك فهي وسط ، وهو مصل ، وله من الأشعار ما وصفت بالسفسفات فهو بهن سكيت ، وكان والفرزدق بينهما في ذلك ، فلم يأتي بالروائع من الأشعار ، كما لم يقع في تلك السفسفات ، فهو دائما وأبدا مصلٍّ

وقد ذكرت كتب اللغة خلاف ما صرح به الأصمعي وأبو عبيدة ، فللثالث والرابع أسمان كما أن للأول والثاني أسماء أخرى غير ما ذكر ابن أبي بردة ، إذ سمي السابق من الخيل أيضا : المجلّي ، وهو أول من يصل في السباق إلى النهاية ، وسمي المجلي ، لأنه جلّى عن صاحبه ما كان فيه من الكرب والشدة ، كذلك سمي المبرز (الأندلسي ع.، 1949 م، صفحة 33) ، والمصلّي هو الثاني في السباق ويكون مقدمة رأسه على نهاية جسم الحصان الأول ، قال الأصمعي : (إنما قيل له مصل لأنه يكون عند صلوي السابق وهما جانبا ذنبه عن يمينه وشماله) ‘ أو كما قال علي بن عبد الرحمن الفزاري (ت بعد 763هـ) : (لوضعه جَحْفَلته على صَلاَ السابق، وهو عِرْقٌ في ظاهر جهات الفخذ ، وللدابة صَلَوانِ ، وهما جانبا عَجْبِ الذنَب) (الأندلسي ع.، 1949 م، صفحة 33) ، ثم المسلّي ، ويكون الثالث وسمي بذلك لأنه سلّى عن صاحبه بعض همه في السباق ، ثم التالي لأنه تلا المسلي ، ثم المرتاح لأن راحة اليد فيها خمسا فهو الخامس أو هو من الرّواح، ومعناه أنه أتى أواخر الأوائل، لأنه الخامس، وبه تنَصَّف عَددُ السوابق، وهو أول الرّواح وآخر الغُدوِّ، فكذلك خامس السوابق : آخر الأوائل، وأول الأواخر ، ثم السادس وسمي العاطف ، من العَطْف والانثناء، فكأَنَّ هذا الفرس هو عطف الأواخر على الأوائل ، أي أثناها فاشتق له اسم من فعله ، ثم السابع وسمي الحظيُّ ، وإنما كان حَظِيّاً لأنه نزل في الأواخر منزلة

المصلّى في الأوائل، فحظي بذلك، إذ فاته أن يكون عاطفاً، فكانت له بذلك حُظوة دون من بعده ، ثم الثامن ، وسمي المؤمَّل ، لأنه منتظر الثلاثة المختلفة ، إذ لا بد من سَبْق أحدها غالبا، فلما تعيَّن سَّمى مما تعلَّقَ به الأمل، وقيل فيه مؤمَّل. ثم التاسع وسمي اللطيم لأنه يلطم عن الحجرة ثم العاشر وسمي السكيت لأنه يعلو صاحبه تخشعٌ وسكوت (الأندلسي ع.، 1949 م، صفحة 33) .

إن حرص ابن أبي بردة على تسمية الثاني بالمصلي يفسره معنى المصلي نفسه في ألقاب الخيول ، فكون رأس الحصان الثاني على نهاية جسم الأول دليل على قرب الثاني الشديد من الأول حد الالتصاق ، وأنه كاد أن يكون مثله ، فهو في درجة قريبة جدا من السابق وكما أن السابق له الفضل في الإتيان بمعنى غير مسبوق إليه ، كذلك المصلي .

وإذا كان المصلي معناه أنه الثاني في ذكر الصورة والمعنى فإن في الأمر خلاف ، فقد ذكر أن طرفة بن العبد أول من قال ذلك (طالب، 1380 هـ، صفحة 284) ، فمن وجهة نظر آخرين فإن طرفة في بيته هذا من السابقين لا المصلين ، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار تفسير ابن قتيبة للحكم على الأخطل بأنه إما سابق وإما سكيت ، فإن أغلب النقاد القدامى وصفوا طرفة بأنه أجود الشعراء طويلة ، وأحسنهم واحدة ، مستشهدين على جودة شعره ببيت الاستراثة محل البحث ، مما يثبت أن حكم ابن أبي بريدة على طرفة بأنه مصل ولا سيما في بيته هذا هو حكم انطباعي قائم على الذوق الشخصي ، والميول الذاتية ، لا عن معيار نقدي حقيقي ، وربما كان حكمه مبنيا على تفضيله لتلك الأبيات من جهة الحكمة التي احتوتها .

- **في بيت طرفة مساواة :**

ذكر بعض النقاد بيت طرفة ضمن شواهد المساواة (الهاشمي، د. ت، صفحة 207) ، والمساواة هي (أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض ولا ينقص عنه) (العدواني، صفحة 199) ، من ذلك مثلا قوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ' والمساواة نوع من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى كما عرفه قدامة ، فضلا عن الإشارة والإرداف والتمثيل والمطابق والمجانس (الأزراري، 2004م، صفحة 491) .

وقد وصفت المساواة بأنها البلاغة بعينها ، فقد وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال: (كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر) (الفرج، 1302 هـ ، صفحة 179)

وباب المساواة كما يراه أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) هو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب ؛ فكأنّ ألفاظه قوالب لمعانيه ؛ فلا يزيد بعضها على بعض (العسكري، 1371هـ، صفحة 179) ' فالبلاغة قسمان: إيجاز وإطناب، والمساواة معتبرة في القسمين معًا .

وقد عرف أبو إسحاق الحصري (ت 453هـ) المساواة بإنها (الأصل المقيس عليه، والدستور الذي يُعتمد عليه ، ... لا يستغنى الكلام فيها عن لفظ منه ، ولو حُذف منه شيء لأخلّ بمعناه) ، وبيت طرفة من ضمن ما استشهد به مما ينطبق عليه تعريف المساواة ، فعبارته على الحد الذي عرف بين الناس (الذين لم يرتقوا إلى درجة البلاغة ولم ينحطوا إلى درجة الفهامة) (بوسف، 17 / 11 ، 2015) [1] ، وهو كثير في القرآن الكريم ، إذ يخاطب القرآن الكريم شرائح مختلفة وبحسب عقولهم ، لتكون الأحكام والتشريعات واضحة لا لبس فيها .

الخاتمة :

بعد الرحلة الممتعة بصحبة بيت الاستراثة واستقصاء ما قيل في نقده وتوجيهه يمكن أن يخرج البحث بأهم النتائج وعلى الشكل الآتي :

1. كثرة إطلاق الأحكام النقدية قديما على بيت طرفة بن العبد
2. راق لي تسمية البيت ببيت الاستراثة من الريث ، بمعنى الاستبطاء ، متكئة على تمثيل رسول الله صلى الله عليه و سلم به إذا استراث الخبر ، وهي تسمية أراها موفقة ، ولم يقب بها أحد في عير هذا البحث .
3. إن الأحكام النقدية السابقة ولا سيما التي أطلقها الشعراء على بعضهم لم تنبع من رؤية نقدية واضحة ، أو معيار نقدي محدد ، بل هي انطباعية ذوقية لا أكثر ، ولم تكن هذه الأحكام مما يسلم بها خلافا للنقاد الذين انطلقوا من معايير وضعوها بعد تأمل ودراسة .
4. الأحكام النقدية التي أطلقت على بيت الاستراثة :

---

[1] ينظر : الإيجاز والإطناب والمساواة في البلاغة : أبو أنس أشرف بن بوسف 17 / 11 ، 2015 مقال في شبكة الألوكة .

أ. أحكم ما قالت العرب وأوجزه :

ب. أسير بيت قالته العرب :

ت. في البيت تضمين

ث. خلو البيت من المبالغة

ج. بيت طرفة من المصلي

ح. في بيت طرفة مساواة

5. لم يكن التضمين في رأي الأخفش عيبا ، فلا عيب في بيت طرفة ، فهو مذهب من مذاهب العرب .
6. شاع في تعريف التضمين حاجة البيت الأول للذي يليه من حيث المعنى وتمام الجملة ، واثبت البحث احتمالية العكس وهو حاجة الثاني للأول ، مما يوجب ذلك إعادة النظر في تعريف النقاد للتضمين .

المصادر :

القرآن الكريم

المبالغة في الشعر الجاهلي ، العدد 2 ، المجلد 11 . (2007 م). مجلة الفتح للبحوث التربوية والنفسية .

إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني. (بلا تاريخ). *زهر الآداب وثمر الألباب* . بيروت : دار الجيل.

إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار. (بلا تاريخ). *المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة* . دار الدعوة.

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري. (2004م). *خزانة الأدب وغاية الأرب ، تح : عصام شقيو ، الطبعة الأخيرة* ،. بيروت، دار البحار: دار ومكتبة الهلال .

ابن سعيد الأندلسي. (بلا تاريخ). *نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تح : د. نصرت عبد الرحمن* . عمان – الأردن : مكتبة الأقصى.

أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي. (2000 م). *المحكم والمحيط الأعظم ، تح : عبد الحميد هنداوي ، ط1* . بيروت : دار الكتب العلمية .

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي. (1900 م). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح : إحسان عباس.* بيروت : دار صادر .

أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (ت 390هـ). (2005 م). *الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، تح : عبد الكريم سامي الجندي ، ط1 .* بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية.

أَبُو القَاسِمِ الحُسَيْنُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ بنِ الحُسَيْنِ الدِّمَشْقِيُّ، الحِنَّائِي. (2007 م). *فوائد الحنائي = الحنائيات (ت 459هـ) ، تح : خالد رزق محمد جبر أبو النجا ، ط1 .* أضواء السلف .

أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر. (1995 م). *تاريخ دمشق ، تح : عمرو بن غرامة العمروي.* دمشق : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو أنس أشرف بن بوسف. (17 / 11 ، 2015). *الإيجاز والإطناب والمساواة في البلاغة .* مقال في شبكة الألوكة .

أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي. (ت 170هـ). *جمهرة أشعار العرب تح : علي محمد البجادي.* مصر : نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني. (2008 م). *الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تح : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، ط1 .* قطر : المطبعة السلفية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية .

أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي. (ت 463 هـ – 1981 م.). *1. العمدة في محاسن الشعر وآدابه تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ، ط5.* دار الجيل : دار الجيل .

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. (1418 هـ). *عيون الأخبار.* بيروت : دار الكتب العلمية .

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. (1423 هـ). *الشعر والشعراء.* القاهرة : دار الحديث.

أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني. (ت 855هـ). *نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار .*

أبو منصور عبد الملك عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. (1985م). *الإعجاز والإيجاز ، ، ط3 .* بيروت / لبنان : دار الغصون .

أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري. (1371ه). *1. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر ، تح : علي محمد البجاوي. ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1،*. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي. (د. ت). *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ضبط وتدقيق د. يوسف الصميلي*. بيروت : المكتبة العصرية .

أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري. (بلا تاريخ). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء* . بيروت : دار الكتب العلمية.

أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب. (1995م). *قواعد الشعر ، تح : رمضان عبد التواب ، ط2*. القاهرة : مكتبة الخانجي .

الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد. (1994 م). *المنصف للسارق والمسروق منه ،المعروف بابن وكيع (ت 393ه) ، تح : عمر خليفة بن ادريس ، ط1* . بنغازي : جامعة قات يونس.

الدكتور علي الشعيبي. (2002). *الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام* .

المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب. (1380 ه). *الفاخر ، تح : عبد العليم الطحاوي ، ط1* . عيسى البابي الحلبي : دار إحياء الكتب العربية.

بُو اَلْفَرَجْ عَلِي بْنْ اَلْحُسَيْنْ بْنْ مُحَمَّدْ بْنْ أَحْمَدْ بْنْ اَلْهَيْثَمْ اَلْمَرْوَانِيَّ اَلْأُمَوِيّ اَلْقُرَشِيّ المعروف بَابُو اَلْفَرَجِ اَلْأَصْفَهَانِيّ. (بلا تاريخ). *الأغاني ، تح : سمير جابر ، – ، ط2* . بيروت : دار الفكر .

تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. (1353ه). *أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري*. بيروت : دار الكتب العلمية .

رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو. (1913). *مجاني الأدب في حدائق العرب ، (ت 1346ه)* . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين.

زياد بن معاوية الذبياني. (1976م). *ديوان النابغة الذبياني ، تح : الطاهر بن عاشور*. تونس : تونس .

سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه. (1988 م). *الكتاب ، تح : عبد السلام محمد هارون ، ط3*. القاهرة : مكتبة الخانجي.

ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري. (1991 م). *أمالي ابن الشجري ، تح : د. محمود محمد الطناحي ، ط1* . القاهرة : مكتبة الخانجي .

طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي. (2002 م). *ديوان طرفة بن العبد ، نح : مهدي محمد ناصر الدين ، ط3 ،* . دار الكتب العلمية .

عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي الأديب المصري. (بلا تاريخ). *الذخائر والعبقريات – معجم ثقافي جامع.* مصر : مكتبة الثقافة الدينية.

عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني. (بلا تاريخ). *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، تح : د. حفني محمد شرف* . الجمهورية العربية المتحدة : الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي .

علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري الأندلسي. (1949 م). *حلية الفرسان وشعار الشجعان ، (ت بعد 763هـ) ، تح : محمد عبد الغني حسن.* دار المعارف : دار المعارف .

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ. (1424 هـ). *الحيوان ، (ت 255هـ) ، ط2* . بيروت : دار الكتب العلمية .

قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج. (1302 هـ). *نقد الشعر ، ط1* . قسطنطينية : مطبعة الجوائب .

كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري. (2003 م). *حياة الحيوان الكبرى ، تح : أحمد حسن بسج ، – ، ط2.* بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية.

محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله. (ت 232هـ). *طبقات فحول الشعراء ، تح : محمود محمد شاكر* . جدة : دار المدني .

محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعى الإفريقى. (1984م). *مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تح : روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد ، ط1* . سوريا – دمشق : مطبعة دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.

محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. (بلا تاريخ). *لسان العرب ، ط1 ،* . بيروت : دار صادر .

موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، أبو منصور ابن الجواليقى. (بلا تاريخ). *شرح أدب الكاتب ، قَدَّمَ له: مصطفى صادق الرافعي*. بيروت : دار الكتاب العربي.

يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله. (1423 ه). *الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ط1*. بيروت : المكتبة العنصرية .